

الفصل الخامس

التطور والتجديد

obeikandi.com

دين الله الإسلام

خلق الله الإنسان ليكون خليفة له في الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ ﴾ [البقرة : ٣٠] ،

ولذا ميزه الله بالعقل على سائر الكائنات الحية ، ليستعين به في الانتفاع بما سخره الله له ، إذ أن الله سخر له ما في السماوات وما في الأرض ، وكثيراً مما يسبح بينهما ، يقول الله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۗ ﴾

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ ﴾

[إبراهيم : ٣٢ - ٣٣]

ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٦٥]

ويقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ ۗ وَلِيُنَبِّئُوا مَنِ فَضَّلِهِ ۗ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١٢] وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ [الحج : ١٢-١٣]

ولكى تكون له الحرية في التفكير والسلوك لم يجبره على سلوك طريق معينة ، بل ترك له اختيار في أن يسلك ما يشاء في الانتفاع بما أعطاه الله ، وكان من الطبيعي أن يعجز هذا العقل عن الوصول إلى كنه الوجود ، وإلى معرفة ما يحدث له بعد الموت ، بل قد ثبت عجزه عن الوصول إلى نظام ثابت للحياة يحفظه من الدمار ، ويساعده على بناء مجتمع سليم متماسك .

ومن هنا أرسل الله له رسلاً ليبينوا له ما عجز عقله عن إدراكه ، وليوضحوا له ما خفى

عليه من أحداث ما بعد الموت ، فكان لكل قوم رسولاً ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ ﴾ [الاعراف :

ويقول : ﴿ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَنَاحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الأعراف : ٨٠]

ويقول : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا

لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا

الْكَيْدَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ

﴿٨٥﴾ [الأعراف : ٨٥]

ويقول : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ ﴿٧٣﴾ [الأعراف :

٧٣

ويقول : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ

أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأعراف : ٦٥]

ويقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا

الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ [الزحرف : ٢٦ - ٢٧]

ويلاحظ من هذه الآيات أن كل رسول كان يبعث إلى قومه ، فهل كانت الرسالات

واحدة باعتبار أنها من مصدر واحد ، وهو الله ، أم أنها كانت متعددة باعتبار تعدد

الأقوام واختلاف درجة حضارتهم ، وتنوع تقاليدهم وعاداتهم ؟

أدلة التطوير

يرى بعض الباحثين أن الجنس البشرى مر بمراحل في تطوره ، ثم يعقد مقارنة بينه وبين تطور الطفل ، فيقول : إن الجنس البشرى بدأ كما يبدأ الطفل ، أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشرى ، ونمت أفكاره ، فوصل إلى ما يمكن أن يسمى مرحلة "صبا البشرية" ، ويستنتجون من هذه النظرية أن الرسالات كانت مختلفة ؛ إذ أن كل رسالة كانت تناسب كل طور من هذه الأطوار . سيطر هذا الرأي على جمهور العلماء قديماً وحديثاً حتى أصبح من المسلمات التي لا تُنقض ، وكثيراً ما يستشهد المحدثون على هذا الرأي بنص للإمام محمد عبده في رسالة التوحيد ، يقول فيه :

إن الأديان خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية في دور الطفولة ، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت ، وكسبت ، وتخالفت ، وانفقت ، وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ونما بها الوجدان ، وبدت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة ، وعن الصفاء ، وملكوت الله ، ولكن الإنسانية في صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها في الصفاء ، فراحت تتعارك ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس العقل والقلب ، وينظم شئون دنياهم وآخرتهم ، وهذا هو الإسلام .

ويرى أصحاب نظرية التطور في الرسالات السماوية - وطبقاً لما عليه الجنس البشرى من درجة التطور - أن كل مرحلة لها سمات خاصة تتفق مع درجة حضارة من أرسلت إليهم الرسالة ، وعليه فقد قسموا الرسالات السماوية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ما كان في مرحلة الطفولة البشرية ، وتبدو ملامحه في :

١. أن الدعوة كانت محدوده بقوم الرسول ، إذ أن كل رسول كان يبعث إلى قومه فقط .

٢. أن ما تضمنته من مبادئ كان في حدود ضيقة ، دون تنظيمات وتفرعات في جوانب الحياة المختلفة ، اللهم إلا ما كان من مرض

اجتماعى تفسى فى المجتمع حتى أصبح ظاهرة عامة ، فكانت الدعوة تنهى عنه .

٣. أنه لم يكن للدعوة فى تلك المرحلة كتب واضحة ، إنما هى بضع نصائح ، وقد توجد بعض ألواح أم صحف عامة .

٤. أننا لم نعرف لأديان هذه المرحلة تواريخ ؛ إذ لم يحدد - مثلاً - العصر الذى أرسل فيه نوح ، أو هود ، أو إبراهيم... الخ

القسم الثانى : وهو ماكان فى مرحلة "صبا البشرية" ، وكانت ملاحظه أكثر تعقيداً

وشمولاً ، وتبدو مظاهره فيما يلى :

١. دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات ، ففى سفر التثنية : "

لَا يُقْتَلُ الْآبَاءُ عَنِ الْوَالِدِ ، وَلَا يُقْتَلُ الْوَالِدُ عَنِ الْآبَاءِ ، كُلُّ
إِنْسَانٍ بِخَطِيئَتِهِ يُقْتَلُ " [سفر التثنية ٢٤ : ١٦] ، " إِذَا كَانَتْ خُصُومَةٌ
بَيْنَ أَنَاسٍ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْقَضَاءِ ، لِيَقْضَى الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ ،
فَلْيَبْرُرُوا الْبَارَّ وَيَحْكُمُوا عَلَى الْمُنْذِبِ " . [سفر التثنية : ٢٥ : ١] ،
" إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا ، وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ ، فَلَا
تَصْبِرُ امْرَأَةُ الْمَيِّتِ إِلَى خَارِجِ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ ، أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ
عَلَيْهَا..... ، وَالْبِكْرُ الَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِاسْمِ أَخِيهِ الْمَيِّتِ ، لِئَلَّا
يُمَحَى اسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلِ " [سفر التثنية ٢٥ : ٥-٦].

٢. أصبح للدعوة كتاب : هو التوراة والإنجيل ، ولكن معانيهما فقط

هى الموحى بها ، وصاغها البشر فى عبارات ، وقد مسها التحريف والضياع .

٣. وجدت فى هذه المرحلة تواريخ ، ولكنها غير دقيقة .

القسم الثالث : وهو ماكان فى مرحلة "شباب الجنس البشرى" ، فله ملامح خاصة

وضحتها هؤلاء العلماء فيما يلى :

١. اتضحت وحدانية الله ، وحطمت الأصنام ، وفتح بالإسلام عهد جديد لا

يقبل الشرك فى أى صورة من صورته ، فالإسلام "فكرة تامة" لا تسمح

لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل الله مثيلاً في الحس ولا في الضمير ، بل له المثل الأعلى ، وليس كمثلته شيء .
٢. أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد رسولاً للعالمين ، يقول

تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا : ٢٥]

٣. ختمت الرسالات بدعوة محمد ﷺ ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضاً ، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ﷺ ، ولم يأت من يدعى الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله .

٤. ديانة الإسلام شاملة لأموال الدين والدنيا ، صورت لنا الله تعالى في سماه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر ، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة في : الميراث ، والسياسة ، والاقتصاد ، والبيع والشراء ، والوصية ، والهبة ، والسلم ، والحرب ، وكل حاجات الإنسان .^١

هذا هو مجمل رأى القائلين بنظرية التطور في الرسالات السماوية .

نقد ونقض

بيننا فيما سبق أن بعض العلماء يرى أن الجنس البشرى مر في تطوره بثلاث مراحل : الطفولة ، والصبا ، والشباب ، وأن الرسالات السماوية جاءت مختلفة في ملامحها وظواهرها لاختلاف من تخاطبهم في درجة التطور.

^١ راجع ١ شلى ص ١٨ وما بعدها

ونرى أن هذا الرأي غير سليم ؛ إذ أنه ظهر في الأوساط الفكرية متأثراً بنظرية داروين ، التي لم تسلم من النقد والتجريح - وإن كان له سند من آراء من سبقوا داروين ، فلا يعتبر دليلاً على صحته - ، ولذا لا يجوز أن يسلم بها علماء المسلمين ، لأن رأيهم - بناءً عليها - في تطور الرسالات السماوية :

• يتنافى مع الواقع .

• ويحمل في طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى .

• كما أنه يوحي بأن رسالة محمد ﷺ ليست خاتم الرسالات .

أما أنه يتنافى مع الواقع ، فإن من ينظر إلى عملية التطور يرى أنها ذو شقين :

الأول : تطور في أساليب الحياة المادية ؛ إذ انتقلت حياة الإنسان من بدائية لم يستعمل فيها إلا أدوات بسيطة كانت من الحجر في بادئ الأمر ، ثم تطورت إلى مادة ثانية وثالثة .. الخ ، كما انتقل معظم الناس من سكن الكهوف والمغارات إلى البيوت البسيطة ، ثم إلى العمارات الشاهقة فمطاحات السحاب بكل ما فيها من آلات تعمل بالطاقة على اختلاف مصادرها ، كذلك تطورت وسائل المواصلات حتى وصلت إلى السفن الفضائية .

فإذا كان هذا مقصدهم من التطور ، فإن الإسلام لن يكون هو خاتم الرسالات ؛ لأن البشرية قطعت في هذا السبيل منذ ظهور الإسلام حتى الآن أضعافاً مضاعفة ، لا يمكن مقارنتها بما قطعت في الفترة الزمنية بين موسى وعيسى عليهما السلام ، أو بينهما وبين محمد ﷺ ، الأمر الذي حتم - بناءً على رأيهم - أن تأتي رسالة محمد ﷺ ، لأن مرحلة موسى وعيسى عليهما السلام كانت قد انتهت .

الشق الثاني من التطور : هو تطور عقلية الإنسان ، ومن المشاهد أن التطور في هذا الجانب ليس تطوراً بالمعنى الذي يقصدونه من التطور ؛ ذلك أنه لا فرق بين عقلية إنسان يعيش في القرن العشرين ، وآخر عاش فيما قبل الميلاد ، إلا في زيادة كمية المعلومات التي حصل عليها ابن القرن العشرين نتيجة التجارب البشرية .

أما التطور في ذات القدرة العقلية فلا دليل عليه ، بل هناك شواهد في حياتنا المعاصرة تنفي هذا ؛ إذ لو قارنا بين أخوين شقيقين ، أحدهما أخذ قسطاً كبيراً من الثقافة المحلية والعالمية ، حتى وصل إلى درجة مرموقة في مجال الفكر العالمي ، والآخر ظل مقيماً في بيئته ،

لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعلم إلا حرفة الآباء والأجداد ، فالأول على رأى من يقول بنظرية التطور يمثل مرحلة "شباب الجنس البشرى" ، والثاني يمثل مرحلة " الصبا" ، وربما مرحلة " طفولة الجنس البشرى" ، وهذا لا يقبله عقل ؛ فالاثنتان فى درجة واحدة من القوة الكامنة فى العقل - وقد يكون الذى حرم من التعليم أكثر ذكاء من الذى تعلم - غاية الأمر أن الذى تعلم أتاحت له فرصة إظهار ما كمن فى عقله من قوة على الفهم والإدراك ، وكان ذلك نتيجة ما حصله من معلومات .

فلو اعتبر القائلون بنظرية التطور هذه الظاهرة تطوراً ، للزم على هذا التسليم بأن درجة التطور فى القرن العشرين فاقت - بمراحل عديدة - درجة التطور فى القرن السابع الميلادى ، حين نزلت رسالة الإسلام على محمد ﷺ ، الأمر الذى يتطلب رسالة جديدة . وعليه فليس هناك تطور فى العقل البشرى ، بل زيادة فى المعلومات ، ورسالة الإسلام جاءت لتخاطب العقل ، أيًا كانت درجة معلوماته عن الحياة وما فيها ، وعن الكون ، وما يحتوى عليه من أسرار .

اختلاف درجات التطور فى المجتمع

تسير عملية التطور فى الحياة الإنسانية فى خط متعرج ، فبينما تكون بعض المجتمعات قد قطعت شوطاً كبيراً على طريق التقدم ، يكون هناك بعض آخر لازال فى أول الطريق ، وثالث فى منتصفه... وهكذا ، لأن عوامل التقدم والرقى ليست متاحة للجميع بنسب متساوية ، وهذا مانشاهده اليوم فى المجتمع الدولى ، إذ اصطلح على تقسيمه إلى دول متقدمة ، وأخرى نامية ، بل إن درجة التقدم متفاوتة ، داخل المعسكر المتقدم ، وخطوات النمو مختلفة فى دائرة مجموعة الدول النامية .

ومالنا نذهب بعيداً ، فنحن نرى داخل المجتمع الواحد - سواء كان فى جانب المتقدمين ، أو فى جانب المتخلفين حضارياً - تفاوتاً كبيراً بين الأفراد والأسر ، فبينما يكون التمدين والتحضر واضحاً لدى أسرة ما ، أو فرد فى أسرة ، يلاحظ بجوارها أسرة أخرى ،

أو فرد داخل الأسرة المتحضرة ، لازال في أول طريق التحضر حسب المفهوم المصطلح عليه في مجال تحديد معنى التحضر .

فإذا طبقنا نظرية التطور التي يقول بها بعض العلماء على واقع الجنس البشرى ، فإننا نجد جزءاً منها تطور حتى وصل إلى مرحلة "الشباب" وجزءاً آخر وصل إلى مرحلة "الصبا" ، بينما نرى جزءاً ثالثاً لازال في مرحلة "الطفولة" ، فهو يعيش عيشة بدائية ، أو ما يقرب من البدائية .

وعليه فيختلف - بناء على رأيهم - وضع كل منهم بالنسبة للرسالة التي تخاطب الحس وهي في نظرهم رسالة موسى ، ويكلف من هم في دور "الصبا" برسالة عيسى ، ولا يكلف برسالة محمد ﷺ إلا من بلغ مرحلة "الشباب" ، فيكون هذا أشبه بالفصول الدراسية في المراحل التعليمية ، حيث لا يقوى من التلاميذ على فهم مواد السنة الأعلى إلا إذا درس مواد السنوات التي قبلها ، ونهياً ذهنياً لدراسة وفهم مواد السنوات العليا.

وهذا تصور خاطئ ، إذ لو سلمنا معهم بهذا لقسم المجتمع الواحد إلى فئات ، بل لقسمت الأسرة الواحدة إلى مجموعات ، وهو أمر يثير سخرية أقل الناس ثقافة وإدراكاً لمفهوم رسالة الإسلام ، لأن الرسالة التي نزلت على محمد ﷺ خاطبت جميع الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية ، وتفاوت درجاتهم الحضارية ، إذ يفهم الرجل العادى القرآن الكريم ويدرك ما هو مطلوب منه في مجال العبادات والمعاملات ، كما يجد فيه أغزر الناس علماً ، وأوسعهم ثقافة في مجال العلوم الفلسفية ما يجده في دهاليز الفلسفة ، وأضابير الحكمة من معطيات علمية في مجال الحياة ، وآفاق الكون ، فهو كتاب يجد فيه كل إنسان مبتغاه ، ويحصل منه على متعته الذهنية والروحية ، مهما كانت درجة هذا الإنسان في سلم الحضارة البشرية .

والقول بأن الرسائل السماوية خاطبت كل مرحلة على قدر طاقتها العقلية يحمل في طياته نسبة العجز إلى الله ﷻ ، ذلك أننا في عالمنا البشرى نصف الكتاب الذى يتمتع بأسلوب تفهمه قطاعات عريضة من الناس مختلفة في الثقافة ، ومتفاوتة في الرقى الحضارى ، بأنه بارع في كتابته ، لأنه استطاع أن يضع أفكاره في أسلوب لا يعجز عن فهمه أنصاف المثقفين ، ولا يمل من قراءته العلماء المتخصصون .

فإذا كان هذا شأن الإنسان المخلوق ، أفلا يستطيع الخالق أن يصيغ أوامره ونواهيه في أسلوب يمكن أن يخاطب به كل الناس ، مهما اختلفت درجة حضارتهم ؟

بلى ...، لقد جاء القرآن الكريم بأسلوب يفهمه البدائي في كهفه ومغارته ، كما يدرك أسراره العالم في حلقاته العلمية ، ومدرجاته الدراسية ، فهو لجميع الناس : أحمرهم ، وأسودهم ، وأبيضهم ، سواء كانوا في مجاهل الكرة الأرضية ، أو في بروجها وناطحات سحابها .

تذبذب خط التطور

يرى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، أنها تركزت في منطقة الشرق الأوسط نتيجة لتطور الإنسانية ، ويستدلون على ذلك بأن هذه المنطقة شهدت أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضارتها أدبية وعلمية ، فهيات شعوبها لتلقى الرسالات .

ويشير هذا التحليل إلى أن الشعوب تسير في خط مستقيم في بناء حضارتها ، وتقدمها على طريق الرقي والارتقاء ، ولكن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، فالمعروف أن هناك شعوباً تقدمت في حضارتها فترة ، ثم انتكست فعادت إلى الوراء خطوات ، قد تصل إلى حد أن يكر بعض الباحثين على الأجيال التي عاشت عصور الانتكاسة ادعاءهم بأنهم أحفاد من بوا هذه الحضارة المسجلة في آثارهم ومتاحفهم .

وهناك أكثر من دليل على ذلك ؛ إذ تكفي نظرة واحدة إلى واقع أحفاد الفراعنة ، والأشوريين ، والفينيقيين ، فحضارة هذه الشعوب لا ينكرها أحد ، لأن آثارها لازالت تنطق بأنها كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقي ، لكن أحفادهم المعاصرين لا يملكون من وسائل الرقي والتقدم ما يجعلهم في مستوى أجدادهم في الحضارة ، ولا حتى في مستوى بقرب منهم .

أفلا يدل ذلك على أن ربط تطور الأديان السماوية بمسألة التقدم والرقى فى المجتمعات الإنسانية أمر لا يستقيم فهمه ، لأنه يترتب عليه أن تتذبذب درجة الرسالات السماوية صعوداً وهبوطاً ، مع صعود ونزول درجة الحضارة فى الشعوب ؟

واستدلال أصحاب نظرية التطور على صحة رأيهم بأن الدعوة فى عصر "طفولة" الجنس البشرى كانت محدودة ، ليس فيها تفاصيل ، وأنه لم يكتب لها كتاب ، بل اقتصر على بعض النصائح ، ولم يعرف هـ تاريخ محدد ، وأما كانت خاصة بقوم دون آخرين ، استدلال غير صحيح ، لأن ما نزل على محمد ﷺ هو الذى نزل على نوح عليه السلام - وهو من رسل عصر "الطفولة البشرية" ، كما يقول هؤلاء العلماء - ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ ﴿١١٣﴾ النساء : ١١٣ ، ويقول : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا

بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۗ ﴿١٣﴾ النورى : ١٣

فالدعوة بأن الرسالة كانت محدودة دون تنظيمات وتفصيل ، يدحضها ما جاء فى القرآن الكريم بياناً لما بلغه الرسل لأقوامهم ، بأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويفعلوا الخيرات ، ويعملوا الصالحات ، فلا يظلمون فى معاملتهم مع الآخرين ، ولا يسرفوا فيما أباح الله الاستمتاع به ، كما ينبغى عليهم أن يوفوا الكيل والميزان ، وأن يحكموا بين الناس بالقسط ، وغير ذلك من الأوامر والنواهي والوصايا التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم ، ليذكر الناس بما كان عليه الأولون مع رسلهم ، لعل هذه التذكيرة تحملهم على الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ولم يكن القصد تسجيل كل ما حدث من الرسل السابقين مع قومهم ، ولا الإخبار بكل ما بلغوه عن الله لهم ، لأنه ليس سجلاً تاريخياً ، يجربنا بما حدث من قبل ، بل هو هداية وعلاج للأمراض البشرية ، فلا يذكر فيه من أخبار السابقين إلا ما يقتضى المقام ذكره . فالقول بأن الدعوات السابقة كانت محدودة لعبادة الله ، دون تنظيمات وتفصيل ، لا دليل عليه ، وبالتالي فلا يصلح دليلاً على صحة نظرية تطور الرسالات السماوية .

أما ما يدعيه هؤلاء العلماء من أنه لم يكن لدعوات عصر "طفولة" الجنس البشرى كتب واضحة ، وإنما هي بضع نصائح ، فلا يصلح دليلاً لنظرية تطور الرسالات السماوية ، لاحتمال أن يكون عدم وجود كتب راجعاً إلى فقدها ، أو إلى عدم تطور الكتابة عند من حملوها . ولا يمكن أن يكون دليلاً على أن عقلية الإنسان في تلك العصور كانت بدائية ، بدليل أننا نجد آثاراً يرجع عهدها إلى آلاف السنين قبل الميلاد ، ومع ذلك تدل على ما كان يتمتع به الإنسان في ذلك العصر من ذكاء وفطنة ، وقدرة فكرية على الإبداع في مجالات قد يعجز ابن القرن الواحد والعشرين عن فهمها والوقوف على أسرار تكوينها .

فرسالة الله لكل الناس ، سواء ارتقوا في حضارتهم ، أم تخلفوا عن اللحاق بركب التقدم ، وسواء كانوا يعيشون عيشة بدائية ، أم كانوا ينعمون بما أبدعته عقولهم في مجالات الحياة المختلفة .

إغفال التاريخ

ويحاول علماء الأديان الذين يرون أن الأديان السماوية تطورت بتطور العقل البشرى الاستدلال على صحة رأيهم ، فيقولون : إن عدم ذكر تاريخ محدد لظهور الرسالات في فترة "طفولة" الجنس البشرى من العلامات البارزة التي تؤكد صحة هذه النظرية .

وهذا كلام فيه مغالطة ، ذلك أن الإسلام الذي جاء - على حسب قولهم - بعد أن اكتمل عقل البشرية ، ووصل إلى أعلى درجات التطور ، ليس فيه تحديد زمن معين لأية حادثة وردت فيه ، لأن الوحي السماوي لا يرتبط بزمن معين ، ولا بعصر محدد ، وإنما جاء لهداية الناس ، وتقويم سلوكهم . ولا علاقة لهذه الهداية بالتاريخ ، فلا تحتاج إلى تسجيل الزمن ، لأنه ليس جزءاً من العملية التربوية الإلهية ، فهو للإنسان في أى زمن وفي أى مكان ، وعلى أى درجة من درجات التقدم والحضارة ، فالقول بأن عدم تحديد زمن الرسالات السماوية دليل على البدائية غير صحيح ؛ لأنه لا حاجة للإنسان في مجال الدعوة إلى الله إلى معرفة زمن رسالة نوح ، أو عصر رسالة هود ، أو إبراهيم ، ولا تحتاج مسيرة الدعوة إلى الله إلى تحديد سلسلة الرسالات زمنياً ، بمعنى أننا لسنا بحاجة إلى أن يحدد لنا إن

كان هود قبل إبراهيم أم بعده ، أو كانت رسالة نوح في عهد زيد من الملوك أم عمرو ، لأن هذه أمور لا تؤثر على عملية انتشار الدعوة إلى الله ، بل قد تكون من العوامل المعوقة لها ، لأن الآراء كثيرة ومتشعبة في تحديد الزمن التاريخي للحوادث البشرية ، فلو حدد القرآن الكريم زمن الرسالات السماوية ، لتعرضت معطياته التاريخية لنقاش لا طائل من ورائه ، وخلافات لا تؤدي في مجال الدعوة إلى فائدة ، وقد أهملها القرآن الكريم تجنباً للخلاف ، ولأنه لا فائدة من ذكرها في عملية الإقناع بدعوة الإسلام .

تحديد مكان الرسالة

وآخر دليل ذكره القائلون بنظرية تطور الرسالات السماوية في تحديد معالم رسالات عصر "طفولة" الجنس البشري ، هو أن الدعوة في تلك العصور - وكذلك في عصور "صبا" الجنس البشري - كانت محدودة بقوم الرسول ، فلم تتعداهم إلى غيرهم ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، ذلك أن هذا التحديد لم يكن مبعثه تطور الإنسان ، وإنما اقتضته ظروف حياة الجنس البشري ، فالمواصلات كانت بدائية ، وبالتالي كانت الاتصالات بين أقطار الأرض صعبة ، ولهذا بعث كل نبي لقومه ، لأنه لا يستطيع أن يبلغ الرسالة لأقطار الأرض المختلفة ، نظراً لصعوبة التنقل ، والدليل على ذلك أن الله أمر موسى عليه السلام وأخاه هارون أن

يذهبا إلى فرعون ، ويبلغاه وحى الله ، يقول تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٤٣ ﴾

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤ ﴾ [طه : ٤٣ - ٤٤] . فكانت دعوة

موسى لفرعون بعبادة الله دليل على أنه لم يبعث لقومه فقط ، لأن فرعون لم يكن من قومه . كذلك آمن السحرة بما جاء به موسى ، مع أنهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى :

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ٤٦ ﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٧ ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ

﴿ ٤٨ ﴾ الشعراء : ٤٦ - ٤٨

كما كان يوسف عليه السلام يُعَلِّم من كان معه في السجن شرع الله ، وهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى حكاية عما كان يقوم به يوسف داخل السجن من الدعوة إلى الله :

﴿ يَصْحِيحُ السِّجْنَءَ أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يوسف : ٣٩ - ٤٠

فدعوة موسى لفرعون ، ومحاولة يوسف هداية من معه في السجن دليل على أن دين الله للناس جميعاً، فما كان حصر دعوة الرسل السابقين على أقوامهم إلا لظروف الاتصال التي كانت تحول بين النبي وبين دعوة غير قومه . ولهذا عندما كانت ترفع هذه الحواجز كان الرسول يدعو غير قومه .

وعليه فالإسلام لكل الناس ، لأن سهولة المواصلات جعلت في الإمكان دعوة القاصي والداني إلى الدخول في دين الله .

التفصيلات والتفريعات

ويدعى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، أن معالم المرحلة الثانية ، وهي ما أطلقوا عليها : مرحلة "صبا البشرية" تبدو في ظهور التفصيلات والتفريعات في التشريع ، واستدلوا على ذلك بما ورد في الكتاب المقدس من مسائل تحدد أحكام بعض ما يرتكبه الإنسان من أخطاء ، وتبين طريقة التقاضى عند التخاصم ، وغير ذلك من التفاصيل التي وردت في الكتاب المقدس في كثير من مجالات النشاط الإنساني .

وفيهم من هذا أن مثل هذه التفصيلات والتفريعات لم تكن موجودة في الرسائل التي سبقت رسالة موسى عليه السلام ، وهو ادعاء لا يستند إلى دليل ، ذلك أن الباحث عندما يتوصل إلى حكم فيه تمييز بين طرفين ، فلا بد أن تكون عناصر الطرفين موجودة أمامه ، بحيث تكون

واضحة المعالم وضوحاً يبرز الجزئيات التي تتركز عليها المقارنة في الوصول إلى نتيجة . فإذا تصورنا هذا المبدأ الأساسى في عملية البحث في موضوعات حديثنا ، فإن المنطق يقتضى أن يكون تحت أيدينا نماذج صحيحة للتشريعات التي نزلت على الرسل قبل موسى عليه السلام ، ويثبت لدينا أنها وحى الله ، بمعنى أنه لم يدخله تحريف ولا تغيير ولا تبديل .

فهل تحت أيدينا نصوص التشريعات السماوية التي سبقت تشريع موسى عليه السلام ؟ وهل يمكن لأى باحث أن يصل بأى طريقة - غير ما ورد فى القرآن الكريم - إلى تصور معالم هذه التشريعات ، ولو عن طريق الحفريات ، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل تسجيل معالم الحركات الفكرية لتلك العصور ، بحيث يسلم العقل البشرى - طبقاً للقواعد المتعارف عليها فى مجال البحث العلمى - أنها من المعالم الأصلية للتشريع فى تلك الحقب ، ويتأكد أنه لم يصل إليها أيدي المولعين بتغيير آثار السابقين وتبديدها ؟

لا يوجد أحد على وجه الأرض يستطيع أن يجيب بـ "نعم" ، لأنه ليس من الممكن عقلاً ، ولا واقعاً أن يعثر الإنسان على نصوص الوحي الذى نزل على الأنبياء الذين أرسلوا فى عصر ما يطلق عليه أصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية : عصر " طفولة الجنس البشرى " .

وعليه ، فأحد عنصرى المقارنة مفقود ، فكيف يقال : إن المرحلة الثانية من مراحل الأديان السماوية - حسب رأيهم - تتميز بظهور بعض التفصيلات والتفريعات فى التشريع ؟ ومن أدراكم أن التشريع فيما تسمونه المرحلة الأولى كان مجملاً ؟

وعلى أى شيء اعتمدتم فى ذلك ، ولم يوجد مرجع يمكن الرجوع إليه على الإطلاق ؟ لا يوجد مرجع يمكن أن يستقى منه معلومات صحيحة عن الدين فى تلك الفترة سوى القرآن الكريم ، فماذا قال عنها ؟

لم يتحدث القرآن الكريم عن أديان تلك الفترة بالتفصيل ، لأنه ليس كتاباً تسجل فيه حوادث السابقين ، وما جاء فيه عن أخبارهم ، إنما سيق للعظة والعبرة حسب ما تقتضيه ظروف الحدث الذى أراد الله تعالى أن يُذكَرَ الناس به ، حتى لا يضلوا كما ضل من سبقهم ، وجاء ذكر الاستشهاد فيه بأخبار الرسل السابقين على موسى عليه السلام فيما يتعلق بمسألة العقيدة دون غيرها ، لأن ذلك نزل فى مكة ، حيث كان نشاط الدعوة مركزاً على

إقناع الناس بوحداية الله ، دون غيرها من التشريعات التي نزلت فيما بعد الهجرة إلى المدينة . فعدم ذكر تشريعات هؤلاء الرسل ، كان لسببين :

الأول : أن المقام كان يقتضى الاستشهاد بما يساعد على الإقناع بوحداية الله ، ولا ينفع في هذا المقام إلا ما يتعلق بالعقيدة دون التشريع .

الثانى : أن التشريع لا يحتاج إلى سرد ما يدعمه من تشريعات السابقين ، لأنه يأتي في مرحلة تلى مرحلة الاقتناع ، وما دام الإنسان قد اقتنع بالأساس الذى يقوم عليه الدين ، فمن الضرورى أن يتقبل كل ما يشرعه له من اقتنع بربوبيته ، وهو الله ﷻ . وهذه قاعدة توجد في جميع المجتمعات البشرية ، على اختلاف العصور والأقطار ، الترمها القرآن الكريم ، لأنه للناس جميعا .

ظهور الكتب المقدسة

ويدعى أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية أن المرحلة الثانية ، وهى ما أطلقوا عليها مرحلة "صبا البشرية" تتميز عن سابقتها بتزول كتب على رسلها ، مثل : التوراة والإنجيل ، زاعمين أن معانيهما فقط هى الموحى بها ، تلك المعانى التى صاغها البشر في تركيب وعبارات لغوية .

وهذا الزعم ينطوى على عدة أخطاء :

أولها : الجزم بأن الكتب المقدسة لم تظهر إلا في هذه المرحلة ، أما ما سبقها ، فلم يخرج الوحى فيها عن كونه بضع نصائح متناثرة ، لم يجمعها كتاب ، أو دونت في بعض الأحوال في ألواح ، أو صحف عامة .

وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولا يوجد من بين المصادر التى يعتمد عليها الباحثون في هذا المجال ما ينفى وجود كتب سماوية في المرحلة السابقة ، كما لم ينص القرآن الكريم على عدم وجود مثل هذه الكتب ، أو على عدم إنزال كتب على الرسل الذين اصطفاهم الله في هذه المرحلة . فالاعتماد على أن القرآن الكريم لم يصرح بوجود كتب هؤلاء الرسل كدليل

للجزم بعدم وجودها غير مسلم علمياً ، إذ يجوز أن يكون عدم الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم راجعاً :

- إلى أن مقام سرد الأحداث لا يتطلب ذلك .

- أو إلى أن اندثارها جعل الحديث عنها لا فائدة فيه في مجال محاوره الرسل لأقوامهم في مجال إقناعهم بواحدانية الله

ثانيها : الادعاء بأن ما أنزل من التوراة والإنجيل هو معناها فقط ، وتولى الأتباع

صياغة المعاني ادعاء خطير ؛ ذلك أنه قد يترتب عليه عدم صحة تحريفهما ،

لأن التحريف لا يتصور إلا لوحى مصاغ بأسلوب إلهي ، أما تغيير ما بصيغه

البشر فلا يسمى تحريفاً بالمعنى المفهوم ، الذي أشار إليه القرآن الكريم في

أكثر من آية ، منها قوله تعالى : ﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ البقرة : ٧٥ ، فالتعبير بـ "كلام الله"

يدل على أن ما حرفوه كان كلاماً مصاغاً في أسلوب لغوي ، وليس معنى ،

إذ لو كان التحريف واقعاً على المعنى لما عبر بـ "كلام الله" ، بل بأحكام

الله ، لأن الذي يغير في هذه الحالة لا يغير كلاماً ، وإنما مفهوماً أَرَادَهُ اللهُ

بَيِّنَاتٍ .

ثالثها : من المعروف أن كلاً من التوراة والإنجيل قد كتب بعد نزول الوحي على كل

من موسى وعيسى عليهما السلام بزمان بعيد ، فهل تناقل الناس معاني الوحي

من وقت نزوله حتى كتابته بمعناه ، أي بدون أسلوب يدل على ما فيه من

أحكام ؟ وكيف بلغه الرسل ؟ بألفاظ أم بغير ألفاظ ؟ إن كان بألفاظ فقد

أصبحت صياغة مقدسة لا يجوز تحريفها ، وإن كان بغير ألفاظ فهو

مستحيل ، لأن المعاني والأفكار لا تخرج عن دائرة القوى الفكرية إلا في

ثوب ألفاظ ، بل إن تصورها في الذهن مرتبط بالألفاظ التي تدل عليها ،

فالقول بأن الوحي نزل بالمعنى ، وصاغه البشر كلاماً لا يقبل ، فلو قيل : إنه

بالمعنى وعبر عنه النبي الموحى إليه بلفظه ، لكان ذلك إلهاماً ، ولم يقل أحد أن الشرائع نزلت كلها على الرسل بطريق الإلهام .

ولكن كيف نفسر ظاهرة عدم وجود كتب مقدسة قبل موسى ﷺ؟

إنها ظاهرة طبيعية ، ذلك أنه ليس لدينا أثر يبين لنا صورة واضحة لحياة الإنسان قبل ستة آلاف سنة ، وما وجد من آثار تكشف لنا عن بعض جوانب الحياة الإنسانية فيما قبل زمن تدوين نص التوراة الموجودة بين أيدينا ، فليس فيه كتاب بالمعنى المفهوم لنا من هذه الكلمة ، وإنما هي بعض نقوش تعبر عن صور غير متكاملة لبعض أنشطة الحياة المختلفة ، حتى الجانب الديني ، فإننا نجد أن ما يعبر عنه ، هو أقوال متفرقة هنا وهناك ، وجدت منقوشة على جدران ما تركوه من آثار ، وما خلفوه من أوانٍ أعدت للاستعمال ، فعدم وجود كتب الرسل السابقين نتيجة لهذه الظاهرة العامة ، وترك القرآن الكريم الحديث عنها أمر طبيعي ، لأنه لم يتحدث عن السابقين إلا بضرب الأمثال في معرض الحوار والمناقشة حول وحدانية الله ، ولا يتطلب هذا المقام حديثاً عن كتب لا وجود لها ، ولا يعرف المجادلون عنها شيئاً .

إن من الخطأ العلمي أن يعتمد القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية على التوراة الموجودة بين أيدينا في الاستدلال على صحة رأيهم ، ذلك أن هذا النص لا يمثل الوحي الذي نزل على موسى ﷺ حتى يمكن القول - كما يدعون - بأن من مظاهر هذه المرحلة - وهي ما يسمونها مرحلة : "صبا البشرية" - أنها ذكرت تواريخ ، ولكنها غير دقيقة ، لأن هذا القول ينسب إلى الوحي عدم الدقة ، فهم يتحدثون عن تطور الأديان السماوية ، التي نزل بها الوحي من السماء ، في حين أن ما بين أيدينا لا يعبر عن وحي ، وإنما حصيلة الثقافة الدينية للشعب اليهودي ، صاغها كتاب العهد القديم بأسلوبهم . ومما لاشك فيه أن فكرهم لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن مضمون الوحي الذي نزل على موسى ﷺ ، بل اختلط به كثير من الثقافات الأخرى ، التي احتك بها الشعب اليهودي في مسيرته التاريخية .

ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك نص واحد في بداية مرحلة تدوين الثقافة الدينية للشعب اليهودي، بل وجد العديد من النصوص ، ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان

هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة ، ثم ظهر اتجاه في القرن الأول قبل الميلاد إلى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا في القرن الأول بعد الميلاد ، وهو ليس بين أيدينا اليوم ، إذ أن أقدم نص عبري للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد .

فإذا كان هذا هو وضع الكتاب المقدس ، فكيف يعتمد عليه في الاستدلال على نظرية التطور في الأديان السماوية ؟

إن نظرية التطور تنسب إلى الوحي أشياء ليس من طبيعته التحدث عنها ، ألا وهي تحديد الزمن ، ذلك أن الرسائل السماوية جاءت لهداية الإنسان وعلاجه من الأمراض الاجتماعية ، حيث تقوم المجتمعات الإنسانية على أسس سليمة تحفظها من التفكك والانهيار ، ولما كانت خصائص الإنسان عامة ، واحتياجاته الأصلية لا تختلف من زمن لآخر ، ولا تتفاوت بتفاوت الأقطار والأمصار كان دين الله واحداً من يوم خلق الإنسان حتى عصرنا الحالي ، وإلى أن تقوم الساعة ، ولذا فلا مجال لذكر التاريخ في مرحلة وعدم ذكره في أخرى ، كما يدعى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، لأن الإنسان واحد في كل المراحل وما يعتريه من ضلال في العقيدة ، وأمراض السلوك على اختلاف الأجيال والعصور تكاد تكون متطابقة : كفر بالله ، وعبادة الأصنام ، واستغلال القوى للضعيف ، وإشاعة الفاحشة في المجتمع ، وتسلبت المادية على حياة الناس...و...و.... الخ .

ولهذا فحين قص القرآن الكريم على محمد ﷺ أخبار السابقين لم يحدد زمن وجودهم ، ولم يذكر تاريخ الأحداث التي يقصها ، لأنه ليس من العناصر الرئيسية المستهدفة من سرد الأحداث ، ولأن طبيعة الحدث عامة ، فمن الممكن أن يحدث في أي زمن ، وفي أي مكان ، فتجديدها بزمن معين يفقدها صفة العمومية ، ويحصرها في دائرة محلية ، وهذا يتناقض مع عموم الرسالة .

فما جاء في الكتاب المقدس من تحديد زمن بعض الأحداث لا يعبر عن وحي ، وإنما هو رأى الكاتب ، وما دام الكاتب بشراً فهو لا محالة سوف يخطئ في تحديد التاريخ خاصة وأن وسائل البحث في مجال التاريخ لم تكن قد تقدمت في ذلك العصر .

وعليه فخطأ المعطيات التاريخية في الكتاب المقدس لا يدل إلا على ضعف الإنسان في مجال التصورات التاريخية في ذلك العصر ، فلا يصلح على الإطلاق أن يتخذ دليلاً على التطور في الأديان السماوية ، لأن تحديد التاريخ ليس جزءاً من عملية هداية الإنسان إلى طريق الحق ، وعلاجه من الأمراض الاجتماعية .

ولهذا كان وحى الله عاماً لكل الناس ، لم يحدد بزمن دون آخر ، ولم يخصص لشعب معين ، أو يقصر على إقليم دون غيره من أقاليم الأرض ، بقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨)

وضوح الوحدانية

ويرى أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية أن المرحلة الثالثة - وهي ما أطلقوا عليها مرحلة : "شباب الجنس البشرى" - تتميز بوضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام . وهذا قول ينطوى على اتهام للرسل السابقين بأنهم لم يوضحوا قضية الوحدانية ، ولم يحطموا الأصنام ، وفي ذلك أيضاً إنكار - أو إغفال - لما جاء في القرآن الكريم ، فقد جاء فيه الحديث عن جهود الأنبياء السابقين في بيان وحدانية الله بصورة واضحة ، ليس فيها غموض ولا تورية ، فلو استعرضنا ما قال الرسل السابقون لأقوامهم ، لظهر لنا وضوح دعوتهم إلى وحدانية الله ، وترك عبادة الأصنام ، فنوح قال لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ ١٠٧ ﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَآطَعُوهُ ﴿ ١٠٨ ﴾ الشعراء : ١٠٧ - ١٠٨ ، وقال هود : ﴿ يَنْقُورِ اعْبُدُوا

اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴾ ﴿ ٦٥ ﴾ الأعراب : ٦٥ ، وكذلك قال صالح .

ويبدو أن السبب في وقوع العلماء في هذا الخطأ ، هو أنهم قارنوا بين القرآن الكريم في وضوح الوحدانية ، وحره على عبادة الأوثان ، وبين ما في نص الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا من خلط في مفهوم تصور وحدانية الله ، ومهادنة لبعض صور الشرك ، أو قبول ما يوحي به . وهذه المقارنة قائمة على أساس غير سليم ؛ إذ لا يجوز المقارنة بين وحى الله ، وبين ما كتبه البشر ، الذى خلط فيه بين ما هو صالح ، وآخر سىء ، ويتناقى مع ما نزل على الرسل السابقين .

ولهذا ينبغي علينا طرح فكرة تطور الأديان السماوية بعيداً ، وعدم قبول أى صورة من صورها ، فدين الله واحد ، ورسالة الأنبياء واحدة ، وخصائص دعواتهم متطابقة :

- ففى دائرة الألوهية دعوا كلهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

- وفى دائرة الرسل اعترفوا جميعاً بأنهم بشر ، وأن وظيفتهم لم تتعد البلاغ للناس .
- كما بينوا للناس أن الله هو المسيطر على كل ما فى الوجود ، فهو واهب الحياة ، وهو الذى يكفل الرزق لعباده ، وسوف يحاسب كل إنسان على ما فعله فى هذه الحياة الدنيا .

- كما وضع من سيرتهم أن موقف الأعداء منهم كان واحداً ، فقد كانوا مصرين على عبادة آلهتهم من دون الله ، وأنكروا البعث ، واستخفوا بوعد الله .

هذه هى الملامح الرئيسية لكل الرسالات السابقة ، كما ذكرها القرآن الكريم ، فليس فيها ما يشير إلى تطور ، أو اختلاف واحدة عن الأخرى ، لأن الكل من عند الله وهو واحد ، كما أنهم أرسلوا جميعاً للإنسان باعتباره بشراً ، فجميع الأجناس تشترك فى الخصائص البشرية ، ولذا يجب عليهم الإيمان برسالة الإسلام ، لأنها لهم جميعاً من حيث هم بشر ، جاءهم من الله ، وهو خالق الناس جميعاً ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ

جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَعَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ [النساء : ١٧٠]

الأديان السماوية

يجرى على ألسنة المسلمين أن الأديان الثلاثة : " اليهودية والنصرانية والإسلام " أديان سماوية ، ويتدارس طلاب العلم في مدرجاتهم الدراسية القضايا الدينية على أساس صحة هذه القضية ، بل ويتناول الباحثون والمتحريون في المجال الديني المسائل المشتركة بين الأديان الثلاثة بحثاً ودراسةً واستنتاجاً من منطلق الاعتقاد بأن الله أنزل اليهودية على موسى ، وأنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام .

شاع هذا الرأي بين المسلمين ، واعتنقه جمهرة العلماء ، على الرغم من أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تؤكد أن الإسلام فقط هو الدين السماوي ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَدْيَانَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْإِسْلَامَ ۗ ﴾ آل عمران : ١٩ ، أى أن الدين المنزل من السماء هو الإسلام لا غيره . ويقول : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَّسْلَمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران : ٦٧ ، أى أنه لم يكن معتقاً دين اليهودية ، ولا مؤمناً بدين النصرانية ، ولكنه كان على دين الإسلام .

ويحكي القرآن الكريم دعاء يوسف ربه فيقول : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يوسف : ١٠١

وقد وردت آيات كثيرة على لسان رسل وصالحين عاشوا قبل محمد ﷺ يدعون فيها ربهم أن ينعم عليهم بالإسلام ، وأن يوفقهم إلى أن يموتوا مسلمين ، ولم ترد آية واحدة تذكر أن أحداً من السابقين على الإسلام سأل ربه أن ينعم عليه باعتناق اليهودية أو النصرانية ، ذلك أن الله لم يزل ديناً بهذا الاسم ، فلم يذكر في كتابه الكريم أنه أنزل اليهودية على موسى أو أنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام ، لأن اليهودية نسبة إلى يهوذا ، والنصرانية نسبة إلى الناصرة التي انتسب إليها أتباع عيسى ﷺ .

إذا ، فلا علاقة للتسمية بما أنزل الله على هذين النبيين ، فما أنزل على موسى هو الإسلام ، وما أنزل على عيسى هو الإسلام ، أما ما أطلق عليه اسم : " اليهودية " فهو عبارة عن تسمية لما عند اليهود من المبادئ والتشريعات الدينية التي جمعوها من تراثهم ، أى أنه وحى اختلط بما أخذوه من روافد ثقافية أخرى ، ولا شك أن هذا الجديد يحمل من العالم ما جعله يختلف كلية عما نزل على موسى عليه السلام ، وهو الذى سمي بـ " اليهودية " .

فاليهودية هى من صنع اليهود ، وكذلك النصرانية ، أما ما نزل على موسى فهو الإسلام ، وهو نفسه الذى نزل على عيسى ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ

الإِسْلَامُ ﴾ آل عمران : ١٩ ، أى إن الدين الذى نزل من عند الله هو الإسلام ، سواء نزل على موسى أو على عيسى عليهما السلام ، أو على غيرهما من الأنبياء السابقين ، ولكن عندما اختلط بالثقافات البشرية ، وضاعت معالم الإسلام ، أخذ اسماً آخر ، مقتبساً من الملابس التى مرت بالأتباع ، سواء تعلقت بشخص أم بمكان .

والدليل على أن دين الله الذى نزل على الأنبياء جميعاً واحد ، وهو الإسلام ، أن كلمة لدين لم تأت فى القرآن الكريم بصيغة الجمع " أديان " على الإطلاق ، لأن دين الله واحد ، وإن تعددت رسالاته ورسله ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ

نَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ

لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ فصلت : ٤١ - ٤٣ ، ولم يأت تعدد الرسالات إلا لتصحيح ما حرف ، لأن المجتمعات البشرية دأبت على تغيير الرسالات بعد رسلها ، فكلمة طال الزمن بعد الرسل تبادوا فى غيهم وضلالهم ، فحرفوا وبدلوا ، فإذا ضاعت معالم الرسالة ، أرسل الله رسولاً آخر ليبلغهم الرسالة من جديد ، حتى جاء خاتم الأنبياء محمد

ﷺ ، فحفظت رسالته من التحريف والتبديل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ الحجر : ٩ ، لأن الله قد كتب فى الأزل أنه سيكون خاتم

الرسول ، فحفظ القرآن الكريم مما أصاب ما نزل على الرسل السابقين ، ولذا لم يعد الأمر في حاجة إلى إرسال رسول آخر .

وجملة القول : إن دين الله واحد ، هو الإسلام ، وهو ما أنزله على جميع الأنبياء.

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، أما ما يعرف باليهودية

والنصرانية فهي تسمية لما في أيدي اليهود - وكذلك الحال لما في أيدي النصارى - من

مبادئ وتشريعات دينية لا صلة لها بالإسلام ، إلا باعتبارها منسوبة - في أصلها - إلى من

أنزل عليه الإسلام من قبل ، وهما موسى وعيسى عليهما السلام ، أو باعتبار أن فيهما بعضاً

مما أنزله الله عليهما ، وإن كان هذا البعض قد اختلط بما أضافه أتباعهما إلى وحى الله .

ولهذا أطلق القرآن عليهما " أهل الكتاب " نسبة إلى الكتاب الذى فى أيديهم باعتبار أن

فيه شيئاً منسوباً إلى نبيين من أنبياء الله ، ولم يطلق عليهم اسماً يدل على أنهما أتباع دين نزل

من الله على هذين النبيين ، لأن ما يتسمون به ، وهو : " اليهودية " أو " النصرانية " ليس

ديناً من عند الله ، وإنما هو عَلم على مجموع الثقافات الدينية التى اتخذوها ديناً لهم .

* * *